فلسطين شرط وجود حبش .. والعروبة شرط بقاء فلسطين!

طلال سلمان

عاش جورج حبش حياته على أنه بعض «فلسطين»: هي شرط وجوده بقدر ما هي العروبة شرط بقاء فلسطين لأهلها، قضية تحرر ووحدة. ولأنه عاش دائماً داخل حلمه فإنه قد رحل بعدما ضاق عليه حلمه الذي لم يغادره أبداً. ولعل مما عجل في رحيل هذا المقاوم العريق تلك الصور التي تسنى لجورج حبش أن يراها، قبل أن ينطفئ نور عينيه، للفلسطينيين من أهالي غزة وهم يُسقطون الحدود المصفحة مع مصر، في محاولة عنوانها الرغيف أما هدفها المضمر فهو استعادة شعب مصر الذي قدم لفلسطين من أبنائه مثل ما قدمت وأكثر. لقد رأى اللاجئين (تكراراً) في وطنهم (وقد ضاع منهم) يقتحمون الحدود طلباً لمصر وسائر أهلهم في الدول الكثيرة، تلك الغارقة في الذهب حتى التيه، وتلك المغرقة في دماء أبنائها بالاحتلال الأميركي، وتلك التي انفرد بها حكامها فأغلقوا أبوابها على شعبها وأوهموه أن خلاصه بتنصله من هويته وأعبائها، وكان العزلة هي أقصر الطرق إلى الرفاه والتقدم والديموقراطية. مع الحديث عن جورج حبش، تتداعى فوراً أسماء رفاق السلاح سواء الذين سبقوا إلى الشهادة أو ينتظرون، و«أخطرهم» الدكتور وديع حداد، الذي أدخل أساليب عبقرية جديدة إلى الكفاح المسلح، برغم أنها مسّت بقداسة القضية، ثم هانيّ الهندي، وأبو ماهر اليماني وأولئك الذين بنوا معه حركة القوميين العرب وفيهم العراقي والسوري واللبناني والكويتي واليمني إلخ... ولفترة، بدا وكأن هذه الحركة قد نجحت في إعادة وصل ما انقطع بين «الأخوة العرب»، وأسهمت في إحياء الأمل ببناء الوحدة العربية، خصوصاً وقد انتشرت خلاياها في مختلف الأقطار العربية، مشرقاً ومغرباً. لكن مقدمات الهزيمة العربية في حرب ١٩٦٧، بعد الانفصال الذي دمر أول وحدة عربية (الجمهورية العربية المتحدة) أخذت «الحكيم» والتنظيم إلى مدى آخر، (فهرب» من القومية إلى الماركسية ـ اللينينية، مفترضاً أنها قد تقرّبه أكثر من الطبقات الشعبية المؤهلة لخوض حرب التحرير، وهكذا وُلدت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، على أنقاض «الحركة». وباختصار فإنه قد جرّب الوصول إلى فلسطين عبر كل الطرق المتاحة: من عمان الأقرب بالجغرافيا، إلى دمشق الأقرب بحس الانتماء القومي، من بيروت الأقرب بحرية السلاح، من طرابلس القذافي قبل أن «يهاجر» فكرياً إلى نظريته الخاصة... ولكن دائماً من القاهرة الأقوى بدولتها متى ارتفعت فيها راية العروبة التي تم تهجيرها منها بعد وفاة جمال عبد الناصر، وبعد إجهاض النتائج الباهرة لحرب العاشر من رمضان التحريرية إلى غربة الصلح المنفرد... هل من الضروري التذكير بالمأساة الدموية التي نجمت عن «التحول الفكري» المريع الذي أخذ «القوميين السابقين» في عدن إلى المذبحة تحت الرايات الحمراء لماركسية مبتدعة، كانت مهمتها الفعلية تغطية السبق إلى السلطة بتبريرات ليس لها علاقة بأهل البلاد، البؤساء في فقرهم، ولا بثورتهم ضد المحتل البريطاني (في جنوب اليمن) ولا بطموحهم إلى العودة إلى وطنهم الطبيعي: اليمن.

لم يكن جورج حبش سياسياً، بالمعنى المألوف للكلمة، في أي يوم. ربما لهذا لم يتحرج من تبديل الإيديولوجيا، ولكن دائماً بهدف استنقاذ الحلم: تحرير فلسطين أو استعادتها. لكنه عاش مناضلاً في مختلف الساحات. وعاش دائماً حيث يفرض عليه النضال.

أذكر أنني التقيته ذات شباط، في «الكريمة» في غور الأردن. كان ضيفاً على بعض الفلاحين الذين أفرحهم أن يصيروا أدلاء لأبنائهم الفدائيين وهم يعبرون «الشريعة» إلى أرضهم التي يعرفونها بالشجرة والصخرة والمصباح الخافت والمحدلة على السطح الترابي. قال واحد من الفلاحين مخاطباً «الحكيم» وصحبه: يمكنكم أن تهتدوا بآثار أقدام الصحابة من قادة جيش الفتح. من هنا عبروا وهم في طريقهم إلى بيت المقدس، ومن هنا عبروا ثم أقاموا طيلة حصار دمشق، وكثير منهم قضى نحبه ودفن هنا، في هذه الأرض المباركة خلال الحصار، لأن الطاعون ضرب دمشق وأهلها وأصاب من قادة جيش الفتح ومقاتليه الكثير فماتوا ودفنوا في هذه الأرض، وأقربهم إلينا هنا شرحبيل بن حسنة. قال «الحكيم»: نتمنى على الله أن يكتب لنا الشهادة مثلهم من أجل تحرير الأرض.

وأذكر أنني التقيت وأنا عائد من لقائه في منطقة جامعة بيروت العربية، ذات يوم من أواسط السبعينيات، الشاعر الكبير محمود درويش، فسألني بأسلوبه المميز: هل ما زال الحكيم يستوطن البديهية؟ ولم يكن بحاجة إلى جوابي للتصديق على حكمه... الثقافي. وأعرف أن كثيراً من أهل الرأي ورجال السياسة كانوا يعودون من اللقاء مع «الحكيم» آخذين عليه تمسكه بالمواقف المبدئية المجافية لضرورات السياسة. وكان جورج حبش يستغرب اعتراضهم، ويفترض ـ صادقاً ـ أنهم المخطئون، وأن التجربة ـ لا سيما في مواجهة إسرائيل، ومن يتهاون في حربها ـ ستكشف لهم مدى غلطهم، محذراً من «أنك إن لم تواجه العدو فإنه سيأتيك في قلب دارك».

بين كنفاني وجورج حبش

عادل الأسطة

للناقد (ميخائيل باختين) رأي نقدي مقنع، غالباً ما أستشهد به وهو: إن كل كلام غير كلام آدم، عليه السلام، لا يخلو من تناص، إذ إن كلام ابن آدم يعتمد على كلام ابيه. ولما كنت نشأت في بيئة اسلامية، وقرأت الآية (وعلم آدم الأسماء كلها) فإنني أغيّر، أمام الطلبة، كلام (باختين) وأقول: إن كل كلام غير كلام الله هو كلام لا يخلو من تناص، فالله هو الذي علم آدم، والاخير علّم، بدوره، أبناءه.

وسأقول للطلبة: إن الكلام الذي أنطق به امامكم ليس كلامي أنا. إنه كلام الذين اصغيت اليهم، وتعلمت منهم، وقرأت لهم، ربما أضيف جملة هنا، وثانية هناك، ولو لم أقرأ وأثقف نفسي، لما استطعت أن أتكلم ساعة كاملة، وغالباً ما أقارن بين ما كنت عليه، وما غدوت عليه، وأطلب من الطلبة ألا يرتبكوا حين يراجعون كتاباً ما. تذكرت كلام (باختين) وأنا أفكر في كتابة كلمة رثاء لمناسبة رحيل الحكيم جورج حبش، لم أعرف الرجل، ولم أقرأ له الكثير، سمعت عنه، وقرأت بعض مقالات كتبها، وبعض مقابلات اجريت معه، ومقالات قليلة كتبت عنه، في حياته، وبعد رحيله. ولما كنت اعرف أن هناك صلات وثيقة كانت بينه وبين الشهيد غسان كنفاني، في الكويت وفي بيروت، فقد استنجدت بنصوص الأخير القصصية والروائية، أبحث فيها عن صورة الحكيم أو صوته، فلا شك في أن كنفاني ثمن حبش عالياً، ولا شك أيضاً في أنه تأثر به أو أثمر فيه، من خلال الساعات الطويلات التي انفقاها معاً. في أعمال كنفاني الكاملة التي بجوزتي ورقة منفصلة كتبها جورج حبش عن الشهيد كنفاني، وألقاها لمناسبة ذكرى استشهاده، أتى فيها على آراء غسان ودوره في فكر الجبهة ومشروعها، إذ كان يلح على ضرورة نقل المعركة الى داخل فلسطين، وذكر الحكيم أن كنفاني هو الذي صاغ تقرير الجبهة الذي أعد عن مؤتمرها في العام ١٩٧٢، وأشار الى أن هناك اسلوبين في التقرير الاول له والثاني الذي يمتد من ص ٦٠ الى ص ١٨٥، صاغه غسان.

هكذا أقر الحكيم بتأثره بغسان وبدور الأخير في فكر الجبهة وبلورته وصياغته.

يبقى الجانب الثاني وهو أين هو الحد الفاصل بين كلام الاثنين في أعمال كنفاني الأدبية؟ أين هو كلام غسان وأين هو كلام الحكيم؟ إن ما كتبه غسان في رواياته يعكس، الى حد كبير، فكر الجبهة الذي نطق به أمينها العام في المؤتمرات والندوات والحوارات والمقابلات. لقد جسده غسان من خلال نماذج بشرية، وإلا فهل كان سؤال أبي الخيزران في رواية "رجال في الشمس" (١٩٦٣) سوى سؤال غسان نفسه وضعه على لسان الشخصية؟ وهل كان كلام سعيد س. في "عائد الى حيفا" (١٩٦٩) كلاماً آخر غير كلام غسان، ورؤية الجبهة الشعبية أيضاً؟ وهل كانت رواية أم سعد (١٩٦٩) بعيدة عن طروحات الجبهة الشعبية أيضاً؟ في قصته القصيرة "درب الى خائن" (١٩٥٧) يكتب كنفاني عن أبناء مدينة اللد، مدينة الحكيم، ويأتي على قصة مواطن لاجئ أقام في الكويت، وقرر أن يتسلل الى اللد ليقتل أخاه. ما منعه في البداية يتمثل في حبه لأمه التي كانت على قيد الحياة، وحين ماتت قرر أن ينجز المهمة: أن يقتل أخاه. لماذا؟ لأنه تعامل مع الاسرائيليين وخان أبناء عمه ووشى بهم. وعموماً فإن القصة تطرح فكر الجبهة الشعبية في تحرير فلسطين، قبل تشكل الجبهة.

ليست رابطة الدم مقدسة، وإذا كان لا بد من تحرير فلسطين، فلا بد أولاً من تحرير البلدان العربية من أنظمتها التي تعيق حركة الثوار، وتضع الحواجز أمام فعلهم. وأنا أقرأ كلمات الرثاء لجورج حبش، وأنا أقرأ أيضاً ما كتب عن حياته في الصحف وفي الكتب، ألتفت الى تجربة خروجه من البلد، والى ما شاهده على الطريق من جثث القتلى الفلسطينيين الذين أخرجوا من مدينتهم وقراهم، وقد أشار الى هذا ايضاً الكاتب الاسرائيلي (ايلان بابيه) في كتابه: "التطهير العرقي" (٢٠٠٦)، وذكر جورج حبش وتأثير الهجرة عليه. سيترك هذا الحادث تأثيراً عميقاً على حياة الحكيم الذي سيؤسس الجبهة الشعبية من أجل استعادة وطنه، ولن يلتفت الى حياته الخاصة، فقد كان بإمكانه أن يمارس مهنة الطب، وأن يحيا حياة مستقرة هادئة، وكان بإمكانه أن يبتعد عن السياسة ومركبها الوعر. سأبحث في قصص غسان عن قصة تصور تشرد الحكيم في العام ١٩٤٨، فلا أجد.

وسأسأل نفسي: لماذا؟ فلا شك في أن حبش قص القصة على غسان غير مرة. وسأجتهد: ربما رأى غسان في تجربة الحكيم شبيهاً لتجربته هو، تجربته التي مر بها حين غادر وأهله عكا، ولقد عكس هنا التجربة في قصة "أرض البرتقال الحزين" إن لم تخني الذاكرة. فهل من ضرورة للتكرار؟ ربما تذكر المرء الحكيم، وهو يتابع فصول حياته، ربما تذكر المرء وهو يقرأ رواية غسان: "عائد الى حيفا".

وربما يكون العكس أصح، ففي سيرة الحكيم ما يذكر برواية غسان. زار سعيد. س حيفا، بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، وحاور ابنه خلدون الذي غدا (دوف) وأدرك سعيد أن العودة الصحيحة هي أن يعود منتصراً، لا من خلال تصاريح زيارة اسرائيلية، ولكي يتم ذلك، فلا بد من حرب ينتصر فيها الفلسطيني ليحاور الاسرائيلي من منطلق الند للند. ولم ير الحكيم في اتفاقات اوسلو ما يشجعه على العودة، العودة الناقصة.

انه يريد العودة الى اللد، لا الى رام الله فقط، وربما لهذا آثر البقاء في المنفى. هل مارس الحكيم بسلوكه ما أثاره كنفاني على لسان سعيد؟ ربما، بل أكاد أجزم.